الفصل الأول
المدينة والسياسة
بين الرافد العربي والوافد الأجنبي

قبل البدء في عملية تحليل مضمون المفاهيم المستعملة في الدراسة، لا بد أن أبين أمرين مهمين، أولهما وضع القاعدة الإبستيمية التالية للبحث: "إذا أرت أن أتواصل مع غيري، فعلي أن أحدد مصطلحاتي ومفاهيمي أولا"، وثانيها أن المفاهيم المستعملة لا بد أن لا تفصل عن مضمون بيئتها في الثقافة العربية والإسلامية، وثالثا دراستها ضمن أطر الوافد اليوناني، لكي نبيّن مدى أصالة المفهوم من عدمه.

الحكم الشائع لدى الباحثين الغربيين، هو أن أغلب المفاهيم الفلسفية ليست من إنتاج وإبداع أعلام الفكر الإسلامي، إذ هي مجرد نقل لما أبدعه فلاسفة اليونان القدامى. ومن خلال الدراسة سنتبين إن كان الحكم يستند إلى معطيات علمية، أم مجرد زعم أملته النزعة الثيموسية لدى الغرب. إن دراسة تلك المفاهيم في حقولها الأساسية يُمَكننا من الحكم على مدى انسياق المفكر العربي وراء النقل، والحكم على مدى قدرته على الإبداع. وسنحاول استخدام منهج أ. حسن حنفي، الذي يجزم أن المفاهيم في الفكر الإسلامي، مرت بثلاث مراحل أساسية: النقل، التّحول، الإبداع[1].

ومن المعلوم أن السياسة في الفلسفة الإسلامية عدت جزءا من العلم الشرعي إبان العصور الأولى للمدنيات الإسلامية، ثم عُدت جزءا من العلم المدني وفق التصنيف اليوناني القديم زمن عصور الانفتاح الحضاري، وهو فرع يندرج ضمن الدراسات التي تختص بالحكمة العملية، وموضوعها السّياسة المدّنية، وأشكال السلطة، مع مسائل الأخلاق والفضيلة والقانون.

---

(١) راجع أعمال الأستاذ حسن حنفي (من النقل إلى الإبداع) تسعة أجزاء.

إن المفاهيم سندرسها جينيالوجيا ضمن مجالها الزماني والمكاني، وبالتالي فإن البحث سيتجه نحو البحث الإيثمولوجي من خلال الشعر وكلام العرب أولا، ثم من خلال الفكر الإسلامي الوسيط. وشبكة المفاهيم الخاصة بالبحث تمحورت حول ثلاثة مفاهيم رئيسة في الفلسفة السّياسية هي على النحو التالي :السياسة -- المدينة - العلم.

المبحث الأول

مفهوم السياسة بين الرافد والوافد

من خلال القراءة الكرونولوجية لمجمل التعاريف المتعلقة بمصطلح السياسة، يتضح أن المصطلح يكاد يكون واحدا من حيث المقصد والغاية وإن اختلف من حيث أصل الكلمة الإيثمولوجي، وبما أن الموضوع المعالج يتطرق لمفهومي السياسة والمدينة عند ابن رشد، فإن السياق المنهجي يفرض ضرورة فهم ما يعنيه المصطلحين السابقين في بيئتهما الثقافية أولا، ثم بعد ذلك قياسهما على الوافد اليوناني، ومقارنتها مع الوافد المعاصر.

والمفاهيم المحددة تم تعينها نتيجة أهميتها في الدراسة، وهي: السياسة، المدينة، العلم المدني، والغرض من هذا الحصر هو تناول المفاهيم التي لها علاقة مباشرة بموضوع البحث، بالرغم من وجود مفاهيم تحتاج إلى تحليل معمق، كالتدبير، الفضيلة، الرياسة. وسنتبع ثلاث خطوات في عملية تحليلها، وهي على التوالي:

١-١- مفهوم السياسة في الرافد العربي -الإسلامي

السياسة عند العرب لفظة لها دلالات كثيرة ومتشعبة، لكن من حيث الحركية اللغوية تتجه تقريبا نحو مفهوم التدبير والتنظيم. فالسِّياسية عند العرب في معناها العام هي حسن التدبير والعناية بالشيء.

فكل ما هو قابل للتدبير عند العرب يعد موضوعا لها، ومن ذلك أن لفظة السِّياسية في اشتقاقها اللغوي تنحدر من فعل ثلاثي: ساس أي رَوَّضَ، ومنها السائس أي المرَوِّض، والمسوس أي المرَوَّض. والترويض بمعنى التسييس الذي كان يخص الدواب كالخيل، ثم صار يخص الإنسان من حيث هو كائن ينتقل من الحال الطبيعي إلى الحال المدني.

ودليلنا ما جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي: "السياسة: فعل السائس يقال هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته"(١). وبالتالي فإن السياسة تأخذ معنى تأنيس وتدجين المتوحش، وترتبط بمقصد العناية بالشيء.

ثم ارتبطت السياسة بالرياسة في الفكر الإسلامي، وصارت ملازمة لها كتلازم المبدأ والقاعدة، وعلى هذا الأساس كانت أغلب التعاريف العربية القديمة تحاول أن تربطها برياسة المدينة أو الجماعة، جاء في لسان العرب: "..وإذا رأسوه قيل سوسوه وأساسوه، ساس الأمر سياسة قام به.."(٢)، ومنه يصبح السائس هو كل من حُمل تدبير أمر جماعته وفق عرفهم أو شرعهم أو على الأقل عند تقاطع المصالح.

والأدب الجاهلي كثير الإشارات إلى المعنى المقصود في البحث، ومن ذلك قول الشاعر:

سـادة قـادة لكـل جمـع * ساسة للرجال يوم القتـال

ومنه قول الحطيئة:

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، مج ٦، دار صادر، بيروت، ط١، ص١٠٨.

(٢) المصدر السابق، المكان نفسه.

لقد سوسـت أمر بنـيك حتـــى * تركتهم أدق من الطحـين

فالشّاعر العربي ربط بين السّيادة والسياسة والقيادة، وكلها مفاهيم تحيل إلى مفهوم السلطة، لأن من رُشِّح لسياسة قومه لا بد أن تعطى له القيادة، التي تعني بالضرورة السيادة، عندها يصبح فعل السياسة أمرا ممكنا.

ومن خلال الشواهد الأدبية والدينية نستطيع أن نتبين أن مفهوم السياسة مرتبط بالسلطة، وعلى هذا الأساس ذكر صاحب لسان العرب بأنه يقال سُوسَ فلان أمر بني فلان، أي كلف سياستهم(١)، ويرى الفراء أن السياسة مرتبطة بالتجربة: " فلان مجرب قد ساس وسيس عليه، أي أَمر وأُمر عليه وفي الحديث كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم، أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية"(٢).

والأنبياء ساسوا قومهم لما لهم من سلطة لاهوتية، وقوة تدبير تكمن في وجود العناية الإلهية، بيد أن حكم الملوك والرؤساء خاضع لسلطة التجربة والعقل.

وسياسة البشر بعضهم لبعض هي عناية إنسانية، من حيث تدبير شؤونهم الحياتية، ويصبح القائم بها هو من أُوكل إليه أمر قيادة من يربطه بهم عقد أو عرف، أو مصالح مشتركة.

---

(١) المصدر والمكان نفسه.

(٢) المصدر والمكان نفسه.

(*) جاء في معنى ساس ما يلي: ساس النخر ساس النخر أي أكل النخر يقال نخر ينخر نخرا. وأرض ساسة ومسوسة، ساست الشاة تساس سوسا. وقال أبو حنيفة ساست الشجرة تساس سياسا وأساست أيضا فهي مسيس.

السوس الرياسة، والإيالة السياسة، وآل عليهم أولا وإيالا وإيالة. وفي المثل قد ألنا وإيل علينا يقول ولينا وولي علينا ونسب ابن بري هذا القول إلى عمرو وقال معناه أي سسنا وسيس علينا.

ومن عجائب اللغة العربية أن السياسية تتماشى و مصطلح التأويل، بل أن مفهوم التأويل هو ذاته سياسة اللفظ و المعنى كما جاء في معجم القنوجي: "علم التأويل أصله من الأول وهو الرجوع فكان المأول صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني، وقيل من الإيالة وهي السياسة، فكأنه ساس الكلام ووضع المعنى موضعه"(١).

والمتأمل لفعل التأويل يدرك أنه تدّبُر وتدبير في النص أو المتن، وأن محاولة فهمه وتأويله تحتاج إلى سياسة وعناية، هدم وبناء، منهاج ومعيار. وكذلك هي السياسة المدنية في صورتها الفضلى. والشاعر العربي تفطن للعلاقة الموجودة بين السياسة والتأويل فقال:

أبا مالك فانظر فإنك حالب صرى * الحرب فانظر أي أول تؤولهـــا

وهذا المعنى هو الذي حاول توضيحه ابن منظور في قوله: "وآل الملك رعيته يؤولها أولا وإيالا، ساسهم وأحسن سياستهم وولي عليهم"(٢). ويقال أيضا في المعنى نفسه: "أول التّأويلُ تفسير ما يئول إليه الشيء وقد أَوَّلَهُ تأويلا وتأوَّلَهُ بمعنى وآلُ الرجل أهله وعياله وآلُهُ أيضا أتباعه... والإيالَةُ السياسة يقال آلَ الأمير رعيته من باب قال و إيَالاً أيضا أي ساسها وأحسن رعايتها"(٣). والدليل الآخر على أن السياسة تحمل معنى الإيالة، ما ذُكر في (نهاية غريب الحديث): ".. فلم نَجِد عنده إيالَةً للملْك الإيالَة :السّياسة، يقال فلان حَسن الإيَالة وسَيّىء الإيالة، وفيه ذِكْر جبريل وميكائيل قيل هما جَبْر ومِيكاَ، اضِيفاَ إلى إيل وهو اسم اللّه تعالى وقيل هو الربوبية. وفيه أن ابن عمر رضى اللّه عنهما أَهَلَّ بَحَجَّة من إيلياَء، هي اسم مدينة بيت المقدس، وفيه ذكر أيْلَة: البلد

---

(١) القنوجي، صديق بن حسن، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، مج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ١٤١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مج ٦، ص١٠٨.

(٣) مختار الصحاح، ج١، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية(C.D)،٢٠٠٠، ص ١٣.

المعروف فيما بين مصر والشام"[١]. ومن خلال هذا الطرح نربط بين السياسة والبلدة، ويصبح اللفظ العربي نفسه يدل على ما يدل عليه اللفظ اليوناني، أي المدينة أو البلدة.

ومن جهة أخرى،فإننا نجد مفهوم السياسة في الفكر الإسلامي يرتبط بالقوة التي تُعطي للسلطة قوتها، وارتباط السياسة بالعصا والصلجوان له ما يبرره، فالعصا تدل على القوة والسلطة، ولقد ذكر ذلك ميشال فوكو عندما أرجع ظاهرة الصولجان عند الملوك إلى عصي الرعاة. وفي الحديث النبوي الشريف نستشف هذا الربط بين العصا وسياسة الأهل والبيت: "لا ترفع عصاك عن أهلك . أي امنعهم من الفساد والاختلاف وأدِّبهم؛ وقد يقال للرجل إذا كان رفيقا حسن السياسة"[٢]. والقصد من حديث العصا الحث على سياسة تدبير المنزل: "وقولُه وأَشْهَر بالعَصا وأَدفع باليد يريد أنَّه يرفع العَصا يُرْهِب بها ولا يستعملها ولكنه يدفع بيده. وقولُه ولولا ذلك لأَغْدرت، يريد لولا هذا التَّدْبير وهذه السِياسة لخلّفْت بعض ما أسوق، وهذه أمثال ضَرَبَها أصلُها في رعْيِه الإبل وسَوقها، وإنَّما يُريد بها حُسْن سِياسته الناس في هذا العَزاة التي ذكَرها"[٣].

ولهذا نلاحظ أن الفكر السياسي وظف عصا الراعي لتدل على السلطة والسطوة، فهي عند إمام الجمعة دلالة على علو الدرجة والهيبة، وهي عند الملوك رمز السيادة والحكم.

ومن خلال تتبع ما جاء به التراث العربي والإسلامي، نلاحظ أن مفهوم السياسة يرتبط بكثير من المصطلحات التي كلها تتجه نحو العناية والتدبير، والأهم من ذلك أنّها تربط بين أول تدبير عرفه الإنسان، وهو تدبير الأنعام والدواب، مع التدابير الراقية على مستوى الفكر، والمُتمثلة في تدبير المال. ثم الجماعة السياسية، وأخيرا تدبير اللفظ والمعنى. لنتأمل التعريف التالي: "الإِيالة: السياسة، يقال: فلان حَسَن الإِيالة،

---

(١) النهاية في غريب الحديث،ج١، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية(C.D)،٢٠٠٠، ص٨٥.
(٢) الغريب لابن سلام،ج١،مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية(C.D)،٢٠٠٠، ص ٣٤٥ .
(٣) الغريب لابن قتيبة، ج٢، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية(C.D)،٢٠٠٠، ص٥٢.

إذا كان حسَن القيام على ماله [وذكرنا سابقا أنها تفيد التأويل]، وكذلك الإبالة. وأحسَبه مَأْحُوذاً من الإبل، يقال للراعي الحَسن الرِعْية ، وهو تِرْعية آبِلٍ"(١).

وتعني السياسة أيضا معنى الصلاح والإصلاح، وهذا ما نستشف من كلام العرب حين قولهم: سُست أهلي، أو قولهم سست سيفي. أي أصلحته وقومته، وهو المعنى نفسه الذي صاحب كتاب العين: "السياسة إنما هي إصلاح حال المُساس وتقويمه، قال والعرب تقول ساس فلان دابته إذا قام بصلاحها وراضها"(٢).

إن تنوع مدلولات السياسة راجع إلى تنوع حقول استعمال المصطلح ذاته، وبما أن السياسة تصلح لكل موضوع يحتاج إلى تدبير فيجب أن تكون طبيعة التدبير مختلفة من حقل لآخر، فكل موضوع يشترط طريقة في التدبير تتماشى وطبيعة أفعاله أو غرائزه.

لقد تفطن المفكر الإسلامي لذلك الغنى فأرجعه إلى طبيعة الصنف، فكل موضوع إلاّ ويتطلب نوعا من السياسة تتفق وطبيعته وغايته كموجود.

يقول ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية /ص٣٦) موضحا ما سبق: "كل صنف من الرعية صنف من السياسة، فالأفاضل يساسون بمكارم الأخلاق والإرشاد اللطيف، والأواسط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة، والعوام يساسون بالرهبة وإلزامهم الجُّدد [الطريق] المستقيم وقسرهم على الحق الصريح"(٣).

ومنه نلاحظ أن مفهوم السياسة بدأ يقتصر آخر الأمر على السياسة المدنية، ويرتبط بالسلطة والقهر، وينتهي كضرورة إلى وجود الرئيس والمرؤوس، ويقضى أولا وجود العمران الذي هو أساس وجود فعل السياسة، يقول ابن الأزرق (بدائع السلك في

---

(١) الغريب لابن قتيبة، ج٢، ص ٥٣٥.

(٢) دغيم، سميح، مصطلحات العلوم الاجتماعية والسِّياسية في الفكر العربي والإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١ ،٢٠٠٠، ص ٥٩١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٩٤ .

طبائع الملك/ص١١٦): "إن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره، لما تقدم أن الوازع فيه ضروري سواء كان يزع الخلق، وبمقتضى السياسة الشرعية أو بذلك العقلية. وحينئذ، فرئاسته بذلك إن لم تنته إلى الملك الحقيقي - لفقد شرطه- فلا أقل تمكنه من تمشية ما يسوس به من تحت رئاسته. وحينئذ يسمى رئيسا"(١).

والتّهانوي يجعل السياسة في عمومتها: " علم بمصالح جماعة متشاركة"(٢)، والاشتراك يكون بدءا من المنزل انتهاء بالمدينة. والغاية من هذا العلم [أي السياسة] ما يراه في القوال الموالي: "وفائدتها تعلم كيفية المشاركة التي بين أشخاص الناس،ليتعاونوا على مصالح الأبدان، ومصالح بقاء نوع الإنسان"(٣).

فالسياسة إجمالا عند العرب تعني النظام وعدم الفوضى، فالسائس والسياسي هو المُنظم والمُدبر. والرئيس هو من امتلك القدرة على تدبير شؤون رعيته بمقتضى العقل أو الشرع، وأن السياسة لو عُرِّفت بالغاية فهي إصلاح الراعي والرعية، لأجل حفظ مصالحهم الضرورية، وتعليمه كيفية المشاركة في تسير شؤونهم: "وأما علم بمصالح جماعة متشاركة في المدينة و يسمى السياسة المدنية... وفائدتها أن تعلم المشاركة التي ينبغي أن تكون بين أهل المنزل واحد لتنتظم به المصلحة المنزلية التي تهم بين زوج وزوجة ومالك ومملوك ووالد ومولود، وفائدة هذه الحكمة عامة وشاملة لجميع أقسام الحكمة العملية ثم مبادئ هذه الثلاثة من جهة الشريعة، وبها تتبين كمالات حدودها أي بعض هذه الأمور معلومة من صاحب الشرع على ما يدل عليه تقسيمهم الحكمة المدنية إلى ما يتعلق بالملك والسلطنة، إذ ليس العلم بهما من عند صاحب الشرع"(٤).

---

(١) المرجع السابق. ص٥٩٧.

(٢) التهانوي، محمد أعلى بن علي، موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، مج ٥، دار خياط للكتب والنشر، بيروت، ط١ ص٣٩.

(٣) المصدر والمكان نفسه.

(٤) أبجد العلوم، مج ٢، ص٢٤٦.

إن السياسة عند المسلمين هي كل متكامل، يبدأ من الفرد المدُبر أمر دوابه إلى غاية الرئيس المُدبر شأن رعيته. ومنها كانت السياسة عند المسلمين ترتبط بالوحدة العضوية وأن كل فرد مسؤول عن من هم تحت رعايته وعنايته وتدبيره سواء أكان تدبرا ناقصا أو كاملا. وإذا كانوا أصحاب المعاجم العربية عرفوا السياسة من حيث الحمولة اللغوية والاصطلاحية، فإن فلاسفة الإسلام عرفوها في حقلها الفلسفي، أي في باب السياسة المدنية.عرّفها إخوان الصفا أنّها معرفة كل إنسان كيفيّة تدبير منزله وأمر معيشته، ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه وأقربائه، وعِشرَتِه مع جيرانه، وصُحبته مع إخوانه، وقضاء حقوقهم، وتفقد أسبابهم، والنظر في مصالحهم من أمور دنياهم وآخرتهم(١). ونلاحظ أن التعريف يعمل ضمن نسق الانتقال من البسيط إلى المعقد ومن الدنيوي إلى الميتافزيقي، ومن التدبير المنزلي الناقص إلى تدبير المدينة الكامل.

أما أبو نصر الفارابي فيعرفها أنها تدبير المدن وفق النواميس المتعارف عليها، ومنها الفاضل والفاسد، فالسياسة كيف وعمل(٢).

وابن سينا لم يشذ عن الرؤية الفلسفية، فلقد عرّف السياسة أنّها حسن التدبير والتقدير، وكثرة التفكير والترشيد، وقلة الإغفال و الإهمال، وحكمة التعديل والتقويم(٣).

ويكاد المعنى نفسه يجسده ابن باجة في كتابه تدبير المتوحد، فالسياسة نوعان سياسة المنزل وهي تدبير شؤونه الخاصة، وسياسة المدنية لتدبير ما هو ضروري من الكمالات الإنسانية، إلا أن جوهر السياسة عنده يكمن في سياسة الرجل الفاضل نفسه بمعزل عن الجماعة، إن التدبير عند ابن الصائغ يصبح مسؤولية فردية، يقوم بمهمتها

---

(١) دغيم، سميح، مصطلحات العلوم الاجتماعية والسِّياسية في الفكر العربي والإسلامي، ص٥٩٩.

(٢) الفارابي، أبو نصر، السياسة المدنية، ص٨٦.

(٣) ابن سينا، رسالة في السياسة والرئاسة و الأخلاق، ص ٢٣٥.

المتوحد[١].

وتعريف ابن رشد نفسه لا يخرج عن نظرة الفارابي، فالسياسة هي علم وصناعة عملية يجد بها الموجود الفاضل جوهر كينونته، وتستقيم بها أمور العامة، وتصل بها الجماعة إلى السعادة المنشودة ضمن نطاق التمدن البشري[٢].

حاول ابن خلدون لاحقا أن يتعقب أثر الفلاسفة في ضبط مفهوم السياسة،وليضفي عليه طابع الواقعية عرّف السّياسة أنّها :" تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحِكمة، ليُحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه"[٣].

وابن خلدون في تعريفه للسياسة أقصى الجانب الميتافزيقى الذي أكد عليه الفلاسفة، واستبدله بالمعيار الاجتماعي، إذ السياسة لا يمكن أن تخرج في جوهرهاعن إرادة والبقاء.

وقد حوصّل جميل صليبا كل ما سبق في ما يلي: "يطلق لفظ السياسة على سياسة الرجل نفسه، أو على سياسة دخله وخرجه، أو على سياسة أهله وولده وخدمه أو على سياسة الوالي رعيته وقد يطلق على كل عمل مبني على تخطيط سابق"[٤].

١-٢- الوافد الأجنبي

يكاد يكون هناك إجماع على وجود تقارب بين ثقافات الشعوب حول مفهوم السياسة، ومن جانب آخر يمكن القول أن حتى المقاطع الصوتية تكاد تكون متقاربة ومتناغمة في كثير من اللغات العالمية.

---

(١) ابن باجة، تدبير المتوحد، ص.١٣.

(٢) الضروري في السياسة،ص ٧٣.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة،مج ٢، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ط ٢ ،١٩٩٦، ص ٣٣٢.

(٤) صليبا،جميل، المعجم الفلسفي، ج ٢، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢، ص.

ولعل التركيب اللغوي لمصطلح السياسة في الفكر اليوناني القديم، هو الذي جعل السياسة تحافظ على حمولتها اللغوية والصوتية، خاصة ما يحمله المصطلح اليوناني (Politike) من معنى قريب من ما هو حاصل ومتداول في المدنيات المعاصرة. والسياسة نحتت من لفظة المدينة (بوليس) والتي تشير إلى مجموع الأنشطة التي توجه الحياة الاجتماعية عموما نحو الفائدة العامة، وتحاول أن تجعل منهم جسما سياسيا موحدا(١).

ولفظة "بوليطيقا" تدل في الفلسفة اليونانية على تدبير الإنسان أمر نفسه ضمن إطار جماعي داخل مدينة محدودة جغرافيا، والكلمة مركبة من مصطلحين، الأول يعني المدينة Polis، والثاني يعني تسيير أو تدبير Techne، ومنه تعني تدبير المدينة.

والتدبير يشمل الحفاظ على المدينة كشكل متميز، يشبه إلى حد بعيد الشكل الهندسي في انتظامه وانسجامه، مع ضرورة معرفة العلل التي تؤدي إلى زوالها أو تحوُّلها، ثمّ كيفية رعاية مصالح المواطنين، وكيفية ترقية المدن(٢). وهو نفس المفهوم الذي أقرّه لالاند (Lalande) عندما عرّف السياسة في معناه العام: "السياسة في معناه الإيثمولوجي الواسع هي تدبير شؤون الجماعة المنظمة"(٣).

أفلاطون عرّفها من حيث هي "علم توجيهي" Science directive يوجه الإنسان نحو الفضيلة والخير، والبحث عن السعادة والكمال(٤). إنها بكل بساطة فن الحكم الراشد.

---

(1) Jacob André et des outres. LES NOTIONS PHILOSOPHIQUES. éditions Tome 1 et 2. PUF, Paris. 1990.P1979.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، (د ون ط)، ١٩٨٣، ص٢١٦.

(3) André Lalande, vocabulaire (T et C) DE LA PHILOSSOPHIE, P.U.F, Paris, Neuvième édition, 1962, P. 785.

(4) Jacob André et des outres, LES NOTIONS PHILOSOPHIQUES, P.1979.

وعندما نتأمل تعريف جون جاك شوفاليه ندرك أن أصل الاصطلاح اليوناني مرتبط بالمدينة "بوليس" أصلا، : " إن مما له دلالة بالغة هو كلمة سياسة (Politique) مشتقة من الكلمة اليونانية (Polis) التي تعني المدينة"(١). والفيلسوف العربي الكندي فهم كلمة بوليطقي على أنها تعني المدني لا السِّياسي: " وأما غرضه في كتابه الثاني منها وهو المسمى بوليطقي أي المدني الذي كتبه إلى بعض إخوانه ففي مثل ما قال في الأول و تكلم فيه أكثر على السياسة المدنية وبعض مقالاته بعض مقالات الأول بعينها(٢). واصطلاح الكندي يجانب الحقيقة، لأن كل الدراسات اللغوية تفيد أن لفظة السياسة في الغرب تنحدر من أصل كلمة مدينة.

والسياسة قبل أرسطو كانت تعتبر فن تسير الحكم داخل المدينة، ويُنظر على أنّها هبة إلاهية(*)، فالإنسان عندما عجز عن العيش الجماعي دون فساد و إفساد وهبه زيوس فن السياسة ليُلجمَ به الفساد ويُرقي به الإنسان.

أصبحت السياسة مع أرسطو صناعة بشرية مشروطة بالمدينة، وعلما عمليا يهدف إلى تنظيمها تنظيما يؤدي إلى وحدة المواطنين وتعاونهم على قضاء حاجاتهم الضرورية. وتأخذ السياسة بذلك مفهوم علم الدولة مع أرسطو، وهذا ما يؤكده أندريه غينسنت (G. André) في قوله: "علم السياسة، بالمعنى الدقيق للكلمة، هو العلم الذي يبحث عن الدولة وهذا القول يذّكرنا بكلام أرسطو في كتاب السياسة. فلفظة السياسة في اللغات الأوربية مشتقة من اللفظة اليونانية الدالة على المدينة (بوليس Polis)، والمدينة هي موضوع علم السياسة برأي أرسطو. حيث يستحيل تصوّر الحياة المدنية

---

(١) شوفاليه، جون، جاك، تاريخ الفكر السياسي، ص ١٤.

(٢) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٨٤.

(*) راجع المدخل النظر من البحث – أسطورة برموثيوس-.

الحرّة خارج المدينة، ولذا فهو يخلص إلى أن الحياة في المدينة هي موضوع علم السياسة"(١).

ونفس البعد الأرسطي يعطيه لالاند للسياسة،عندما عرفها تعريفا حصريا على أنّها علم السلطة والحكومة من حيث علاقتها بالعدالة،الاقتصاد، الاجتماع، وكذا مظاهر الحياة الأخرى كالفن والتعليم والدفاع(٢).

وفي نفس المنحى يعرف بول فولكي (P. Foulaué) السياسة كونها الهيئة التي تدبر شؤون المواطنين الذي يخضعون لنفس القوانين(٣)، ويتفق مع لالاند في المعنى الحصري لكلمة سياسة التي تعني علم السلطة أو الحكومة التي تدير كل الأنشطة السياسية: النظام، السلطة، الحقوق، التنظيم السياسي(٤).

وجل التعاريف المقدمة تتجه نحو تأكيد كون السياسة هي علم الدولة أو المدينة لا غير، لكن هذا التعريف يُنظر له من وجهة إبيستيمية أنه تعريف تليد:" إن تعريف علم السياسية بأنه علم الدّولة هو تعريف قديم، إنّه يعود إلى انبثاق هذا العلم كعلم مستقل، ومضمون هذا التعريف بسيط. فهو لا يعترف بوجود سياسة إلا في الدولة، باعتبارها الشكل الأعلى للتنظيم الاجتماعي المتميز بفكرة وجود حائز مجرد للسلطة"(٥).

إن الفكر الغربي يحاول أن يتعامل مع الموروث اليوناني من خلال مبدأ التواصل والقطيعة، وبالتالي حاولوا تجاوز حصر السياسة في علم الدولة، ثم حصرها في علم السلطة فحسب(٦). والتعريف المعاصر يقوم أساسا على الأطروحات

---

(١) خاتمي، محمد، مدينة السياسة، دار الجديد، لبنان، ط١، ٢٠٠٠، ص٢٣.

(2) Jacob André et des outres , LES NOTIONS PHILOSOPHIQUES , P1979.

(3) Foulaué, Poul , DICTIONNAIRE DE LA LANGUE PHILOSOPHIQUE , P.U.F, Paris, P550.

(4) Ibid., Op.sit.

(٥) دانكان، جون، علم السلطة، ص ١٣٥.

(٦) المرجع نفسه،ص١٣٦.

الأنثربولوجية التي تعتقد أن ممارسة السلطة أقدم من السياسة كمفهوم مرتبط بالدولة أو المدينة، لأن أقدم صور السلطة في تاريخ البشرية السلطة الأبوية و الأموسية، ثم توسعت شيئا فشيئا لتتحول إلى سلطة شيخ القبيلة، وبعدها سلطة حاكم المدينة، وأخيرا سلطة الدولة على مجموع الأفراد(١).

إن حصر تعريف السياسة في السلطة له ما يبرره في وقتنا الحاضر، لكن لا يمكن تطبيقه على مفهوم السياسة في عصر ابن رشد وما قبله، لكون مشكلة السلطة كانت تُطرح ضمن إشكاليات العلم المدني الذي تُعتبر السياسة حقله الوحيد فقط.

والمعنى القديم هو نفسه ما تعكسه المصطلحات المعاصرة، فلفظة "بوليتيك" (Politique)في اللغة الفرنسية تعني تدبير شؤون الدولة وفق مشروع حكومي، يتبلور من إرادة السلطة الحاكمة، والمعنى عينه تحمله اللفظة الإنجليزية (Politics) التي تعتبر السياسة هي تدبير شؤون الدولة. ولعل أحدث تعريف هو ما قدمته موسوعة أندريه جاكوب ((André Jacob إذ عرفت السياسة على أنها إرادة المعرفة العلمية والتقنية التي تتيح أكثر مردودية وتفتح باب الإمكان للنظام(٢). لأن السياسة بالمفهوم المعاصر تعني إلى أبعد حد ممكن فن الممكن. وفي المقابل لو أردنا تعريف السياسة بالضد،فنقول أن السياسة هي ضد ما هو غير سياسي، وأن حقيقتها الخالصة ترتبط بتحليل بالمكان، ونظامه، وغاياته، ووسائله، ثم منطقه الخاص(٣).

والسياسي (Politicienne)اسم فاعل هو المنسوب إلى السياسة من حيث الفعل والممارسة لا من حيث التنظير، و أفلاطون في كتابه السياسي كان يقصد به المُمارس وليس المُنظر. ومصطلح "سياسي" إذا أُطلق على من يتولى الحكم،دل على

---

(١) روزنتال . م، ب يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، (دون ط/ س)، ص٢٤٨.

(2) Jacob André et des outres, LES NOTIONS PHILOSOPHIQUES, P1983.

(3) Jacob André et des outres, L'UNIVERS PHILOSOPHIQUE, éditions PUF, Paris,1989,P295.

نوعين من السّاسة: فأولهما ما يُصطلح على نعته برجل الدولة (Homme D'état)،وهو الذي يقيم الحكم على سنن العدل والاستقامة [معنى القديم]، والثاني السياسي الماهر، القادر على الانتفاع من الظروف المحيطة به لتحقيق مآربه السياسية [معنى المعاصر] (١).

تنطلق السياسة من خلال الفلسفة الغربية، من قاعدة البحث عن ما هو مشترك بين المواطنين، لأنه من المستحيل قيام المدينة أو الدولة دون الوحدة السياسية،أو وحدة الجماعة حسب التعبير الأرسطي، ومن ثمة يجب إخضاعهم لقوانين واحدة.

و لقد شهدت الثقافة الغربية المعاصرة الكثير من المفاهيم السياسية، بعد أن أصبحت السياسة علما مستقلا بذاته، كالاقتصاد السياسي Economie Politique، والسلطات السياسية Pouvoirs Politique الحقوق السياسية Droit Politique ...

والغاية من محاولة تضييق مفهوم السياسة في الفكر الغربي المعاصر البحث عن سعادة الفرد عن طريق المؤساسات وليس الجماعة كما كان في القديم، إن المؤسسة عوضت الجماعة، وأصبحت هي مسرح النشاط السياسي، لكن بالرغم من التّحول التاريخي والاجتماعي يبقى الإنسان هو هدف النشاط السياسي، وفي دراسة للأستاذ إسماعيل زروخي يؤكد أن كل التصورات برغم اختلافها هدفها آخر الأمر الإنسان: "إن السياسة بهذا الاعتبار هي عمل موجه للإنسان ومن أجله، ومن ذلك فهي علم وفن، علم من حيث أنها معرفة، وفن من حيث أن لها معاييرها وقواعدها الآمرة والناهية"(٢).

---

(١) روزتال و بيودني، الموسوعة الفلسفية، ص٦٨٠.

(٢) زروخي، إسماعيل، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، مصر، ط ١، ٢٠٠٠. ص ١٦.

١-٣- مفهوم السياسة: بين التأصيل الإسلامي والوافد الفارسي واليوناني

من خلال رصد الثابت والمتحول في مفهوم السياسة،يمكن القول أن الثابت يتحدد من خلال تأكيد كل التعاريف أن السياسة هي علم مدني هدفه الإنسان من حيث علاقته بالآخرين المشاركين له في الأرض، السلطة، السيادة، القانون، والرمز الذي يعطي لوجودها بعدا تاريخيا وحضاريا، أما المتغير فمجاله أوسع من مجال الثابت، فالمتحول يتجلى في طبيعة السلطة وأنظمة الحكم و الغاية من وجود السياسة أصلا.

ومن منطق حركة الثابت والمتحول يتبادر الإشكال التالي: هل السياسة كمفهوم في الفلسفة الإسلامية يمتلك أصالة عن نظيره اليوناني؟؟

إن أصالة السياسة في الفكر العربي والإسلامي تجد حضورها في الاشتقاق اللفظي، ذلك أن لفظة السياسة لفظة عربية أصيلة - لو قُرنت بلفظة فلسفة مثلا - وبالتالي فإن الدلالات التي تحملها اللفظة في بيئتها العربية تجعلها أصيلة حتى في مدلولها السِّياسي اللاحق، ومن جهة أخرى فالسياسة لم ترتبط باسم معين بل ارتبطت بفعل: يعني العناية والتدبير، والتنظيم و الإصلاح. بينما مفهوم السياسة في الغرب ارتبط باسم موجود أي "المدينة". والفرق في أصل المصطلح يجعل المصطلح العربي أقرب إلى التّداول في بيئته الإسلامية من لفظة "بوليتيك".

ورغم أصالة المصطلح العربي في بعده الإيثمولوجي، إلا أنه يحمل دلالات أجنبية، ليست مستوحاة بالذات من الفلسفة اليونانية بل كذلك من الفلسفة الفارسية، لأن توابع المصطلح تتجه أحيانا إلى تغليب النظرة الغنوصية التي تجعل السياسة تتأسس على مبدأ الهرمية، وتصبح السياسة في مفهومها العام هي الطاعة و الامتثال، والوصاية على الرعية. ومن ناحية أخرى تتجه أحيانا إلى تغليب اللوغوس اليوناني وربط السياسة بمفاهيم النشاط الاجتماعي كالمشاركة والمساواة،الحرية والعدالة...

لقد تشبع المفهوم بالثقافة الفارسية أولا،لكون العقل العربي أول من تعاملها

معها في مسائل الإدارة والثقافة، وكان أدب الرسائل و الآداب السلطانية يجعل من يزدجر و أنشروان اللسان الناطق بالحكمة السياسية، والنموذج السياسي الناجح في تدبير شؤون الدولة والرعية، وبالتالي لم يخرج مفهوم السياسة عن مفاهيم الطاعة والاستقامة، يقول الجابري في تحليله إشكالية الموروث الفارسي، ومدى تأثيراته على العقلية السياسية العربية،ما يلي: "..فهي تؤكد أن الموروث الفارسي، خاصة منه ما يتعلق بالملوك و"الآداب السلطانية"، والبرتوكول والسياسة، والأخلاق"(١). ولقد أقر ذلك قبله أبو عثمان الجاحظ حين قال: "وعنهم [أي الفرس] أخذنا قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة، وسياسة الرعية، وإلزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها"(٢).

لقد حاول ملوك المسلمين أن يستغلوا التراث الفارسي لتكريس مبدأ الطاعة، وأن يربطوا السياسة بمفهوم الراعي والقطيع، وأن يعطي للملك سلطة الوصاية على العوام والخواص. مع العلم أن أغلب كتاب الرسائل والعهود والآداب السلطانية هم من حاشية البلاط، لقد حولوا ملوك الفرس الوثنيين إلى حكماء ينطقون بلسان الوحي وجوامع الكلام النبوي، بل غدا أنشروان موحدا، يحاكي في سلوكه سلوك الأنبياء والرسل، ويرسل الحكمة كأن الله أختاره من بين عباده لتلقيها، ولنتأمل أنشروان وهو يتحدث عن السياسة على لسان العامري [السعادة والإسعاد ص ٢٤٩.]: " إن الله تبارك وتعالى إنّما خلق الملوك لتنفيذ مشيئته في خلقه، ولإقامة مصالحهم وحراستهم، فذلك نقول بأنّهم خلفاء الله في أرضه. ولمعنى آخر وهو أنّه جعلهم عالين آمرين غير مأمورين، وحاكمين غير محكومين عليهم، ومستغنين غير محتاجين، فإن حاجاتهم إلى

---

(١) الجابري، العقل الأخلاقي العربي،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص١٤٧ .

(٢) الجاحظ، أبو عثمان، كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق فوزي عطية، الشركة اللبنانية للكتاب، د (ط.س)، ص١٦٧.

الرعية إنّما هي لسبب الرعية وصلاح شأنهم"[١].

والملاحظ أن المتكلم هو أنشروان، لكن الألفاظ عربية البيان، إسلامية المفاهيم والمعاني، فأنشروان تخاله أحد علماء الإسلام، من شاكلة الماوردي والقلقشندي...

إن الإيديولوجية القائمة تحاول من خلال الموروث الفارسي أن تجعل السياسة مرتبط بأخلاق الطاعة، وأن تقرن فعل الحاكم أثناء تدبيره بفعل الله :"...قال [أنشروان] فكأنهما اسمان يثبتان معنى واحدا، فإن الملك يقتضي العبودية، والعبودية تقتضي الملك. فالملك محتاج إلى العبيد والعبيد محتاجون إلى الملك"[٢].

إن السياسة السلطانية تتجه نحو الوصاية السياسية على الرعية، فالرعية لا يصلح حالهم إلا بالملك: "وإن الملك أولى بالعبيد من العبيد بأنفسهم"[٣].

ودراسة كتاب ابن حداد الجوهر النّفيس في سياسة الرئيس يبين في كثير من نصوصه محاولة جعل السياسة تتمركز حول المضمون الأخلاقي القائم على أخلاق المروءة التي يتميز بها العرب خاصة، كالمروءة، الكرم، العهد، الحلم، العفو.. وأخلاق الطاعة الوافدة عبر الفكر الفارسي، ومن جهة ثالثة أخلاق الفضيلة المستوحاة من التراث اليوناني، يقول ابن الحداد وهو يؤصل للسياسة السلطانية: "..أما بعد،فإن من وصف الرياسة العدل في السياسة لِتُعْمُرَ البلاد ويأمن العباد، ويصلح الفساد، وتجري الأمور على وفْق السَّداد، وتنتعش الرعيّة وتقوى على أداء الفرائض الشرعية، وتلك نعمة من الله أودعها في قلوب الولاة والملوك لينصفوا بين المالك والمملوك و الغني والصعلوك[٤].

---

(١) نقلا عن: الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي، ص٣٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠٠.

(٣) المرجع والمكان نفسه.

(٤) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، تحقيق: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ط ١ ،١٩٨٣، ص٦١.

وفي عصر فلاسفة الإسلام، حاول بعضهم الاستعاضة بالفلسفة اليونانية لمجابهة المد الفارسي، وكان هذا التوجه يغذيه جانب معرفي وآخر إيديولوجي،فأما المعرفي هو تحرير السياسة من مفهوم الطاعة والوصاية، وتشبيعه بمفاهيم المشاركة، والمساواة السياسية، وربط السياسة بالحكم الفاضل، مع شحنه بفلسفة رفض حكم الأقلية وأنظمة الغلبة والكرامة والمجد. أما الجانب الإيديولوجي فهو الحد من تنامي الحركة الشعوبية التي جعلت من الفرس مركز العالم الإسلامي.

إن هذه الحركة استطاعت فعلا أن تعطي للسياسة مفهوما مغايرا في بعض جوانبه،إذ أصبحت السياسة ترتبط بالفضيلة والحكم المستنير،الذي يجعل السياسة في المجموع وليس في الفرد، والتي تجعل السياسة حكمة عملية وليست سرا من الأسرار يتوارثها الملوك فقط كما تعتقد الغنوصية.

لقد غاب يزدجرو أنشروان وحضر أفلاطون و أرسطو، غاب أردشير وحضر الإسكندر، غاب برزويه الطبيب وحضر جالينوس، غابت كتب الفرس التالية : كخداي نامة و وآيين نامة.. وحضرت كتب اليونان التالية جوامع السياسة لأفلاطون و كتاب السياسة لأرسطو.

إن هذا التجاذب بين الثقافة الفارسية واليونانية،جعل مفهوم السياسة يتسع على جميع الرؤى والتصورات. وأن يصبح قاعدة مشتركة للعمل والاختلاف، وأن تصبح السياسة عربية اللسان، فارسية الآداب والسلوك، يونانية الغايات والمنطلقات، وإسلامية الروح والامتداد.

المبحث الثاني

مفهوم المدينة في التراث الإسلامي و الغربي

تعتبر المدنية في الفكر الإسلامي من أخطر موضوعات الفكر السياسي لكونها حاضرة الاجتماع البشري، ومُقام الحاكم، ومنشأ السلطة، وميدان التجارة والمعاش.